مقدِّمة

الحمد لله الذي أحاط بكلِّ شيء علمًا؛ ودلَّ على نفْسه بخلْقه، فصرَّفَ الأحوالَ وقلَّبَ القلوبَ، وثبَّتَ على الإيمان صالِحَها، وما قطعَ حبلَ الرَّجاء عن طالِحِها؛ وأقام الخلْقَ - على ما فيهم من أَوَدٍ - بين يدي رحمته، وأبدى لهم مَقاماتهم فمَنْ شاءَ سَلَكَ ومَنْ شاءَ هَلَكَ. والصَّلاةُ والسَّلامُ على محضِ الرِّسالات وخُلاصة المرسلين، صاحبِ الحوض ووارِدِ السِّدرة، المُرَجَّى بالمَقام المحمود، أبي القاسم محمَّد، وعلى أهل بيته الأَوِدّاء الطاهرين وصحبه الإخلاء المنتجبين، وبعدُ؛

فإنَّ المَقام مِن مشترك اللفظ، فهو المِنْبَرُ والمجلسُ والمنـــزلةُ والمكانةُ المعنويّةُ كالكرامةِ والوجاهةِ والشَّفاعة، إلخ؛ وهو في مُتعارف البلاغيين وأهل اللغة سياقُ الحالِ "context of situation" الذي يُراعَى فيه إنزالُ الكلامِ على وجْهٍ مخصوصٍ. وهو عند غير أهل اللغة منازلُ يَنـــزِلها الصوتُ بأنساقٍ وتوقيعاتٍ تعارفَ عليها أهلُ التَّطريب فيما سُمِّي بالمَقامات.

لكنَّ دراسة المَقام في اللغة خطابًا أو نصًّا لم تنصرف إلّا لأحوال الكلام، فمناسبةُ الكلام للموقف تسمَّى "مَقام المقال"، وهي المُشار إليها في مقولة: "لكلِّ مقامٍ مقالٌ ولكلِّ حادثٍ حديثٌ". وإنزالُ المقالِ في مناسبته مما تُمتدح مراعاتُه عند المتكلّمين.

رعاية المَقام فضلُ فِطْنةٍ وذكاءٍ وأمارةُ كياسةٍ وحصافةٍ، وهي مطلبُ التَّأثير والبيان. وهذه الرِّعاية تنشأ وتتفاعل في النَّفْس وتُقاس إلى العالم الخارجيّ حتى تتحوّل فيما بعد إلى تعبيرٍ لغويٍّ بليغٍ. وتَفاعُلُ الأفكار في النَّفْس تُحرِّكه عواملُ اجتماعيّة وشخصيّة تَخضع لتراكم ثقافيّ موروث ومعاصر.

المَقام صورةٌ، لا يُنتبَه إليها عادةً، لهذه التَّفاعلات؛ مَظهرُها التَّعبيرُ باللغة وسواها مِن أدوات الإفهام؛ إذْ تتعاون العناصر اللغويّة مع غير اللغويّة في إبداع التَّعبير مناسبًا لمقاصد الدَّلالة محققًا لغاياتها. فالدَّلالة ليست المعنى القوليّ فحسب، بل هي المعنيان القوليّ والمقاميّ معًا. وتأثيرُ المَقام فيها تأثيرُ المحترِف في حِرفته، فكما أنَّه يَمْهَرُها بطابعِه وسَمْتِه لتدلَّ عليه، يفعل المَقامُ فِعْلَه في توجيه الدَّلالة إلى مقاصدَ لا يُستدلُّ عليها إلّا بمعرفته؛ ومِن هنا جاءت أهمية البحث الدَّلاليّ المنطلق مِن تحرّي تأثير الفعل المقاميّ.

أهمِّيّة الدراسة .

مِن المسوّغات التي دعتْ لاختيار هذا العنوان: محاولةُ مواكبة التجدُّدِ في لغة القرآن الكريم بالتَّجدُّدِ في العلاقة الجدليّة بين المَقام والمقال، لإعادة صياغة فهم القرآن وفقًا لمقامات الخطاب فيه؛ لأهمية ذلك في ظلِّ الاعتقاد الصحيح بأنَّه خطابٌ موجّه لبني الإنسان في كلِّ زمان. كما أنَّ لغةَ القرآنِ موصوفةٌ بأنَّها حمّالةُ وجوهٍ ما يستدعي تفحُّصَ المقال بوصفه أهمَّ مظاهر اللغة للوصول إلى ما هو أبعد مِن ذلك وهو الحقائق الباطنيّة؛ وإنْ كان ذلك مِن الصعوبة بمكان.

أهداف الدِّراسة.

تهدف هذه الدِّراسة إلى:-

1- البحث في تأثير المَقام بوصفه أحوالًا ومناسباتٍ تقتضي إيرادَ المقال بكيفيّات مُعيَّنة وصولًا إلى الدَّلالة المقصودة.

2- إثبات أنَّ (لكلّ مقالٍ مقامٌ)، بعدما ثبتَ أنْ (لكلّ مقامٍ مقالٌ).

3- تعميم فكرة المَقام لتشمل طُرق انتظام السِّياق اللغويّ، فضلًا عن طرق الأداء؛ فسعتْ باتخاذ النَّصِّ القرآنيّ الشَّريف ميدانًا لها إلى توسيع دائرة التَّعميم لتشمل المقالَ المكتوبَ، فضلًا عن المُشَافَهِ. ويرتبط بذلك الكشفُ عن علاقة المقام بظاهرة التَّوسُع الدَّلالي في اللغة العربيّة مِن خلال تقصِّي أَثَره فيما يقع مِن حذفٍ أو إضمار أو تقديم أو تأخير أو تعريف أو تنكير.

4- تبنِّي المعنى المقاميّ لحصر الدَّلالة بمقاصدها والاتكاء عليه في حسم أيّ تزاحمٍ دلاليٍّ بسبب تأثيراتٍ خارجةٍ على المقاصد الحقيقيّة للدَّلالة.

5- إثبات أنَّ تعدُّد العلاقات والفروق والظواهر اللغويّة الذي تتصف به اللغة العربيّة يعدُّ العامل الأساس في اتساع سُلطة المقام فهو المحرِّك الأول لانتظام العلاقات اللغويّة في السِّياق اللغويّ على نحو معيَّن بإيثار أصوات أو صيغ صرفيّةٍ أو مظاهر دَلاليّة أو أسلوبيّة على غيرها.

الدِّراسات السَّابقة.

لم يقف الباحث على دراسات سابقة تنصرف إلى دراسة تأثير المَقام في الدَّلالة، كما لم يقف على دراسة تطبيقية في المَقام؛ لكنْ هناك بعض المصادر التي عُنيت بالمقام في منهجها التحليليّ في تناول النُّصوص الفنيّة، كمفتاح العلوم، وكتاب الصناعتين، والبيان والتبيين، ودلائل الإعجاز؛ وقد اعتمدها الباحث جميعًا في دراسته.

أمّا الدِّراسات الحديثة فيقف في طليعتها كتاب :"اللغة العربيّة معناها ومبناها" للدكتور تمّام حسّان الذي حاول فيه وضْعَ أصولِ نظريَّة مقاميَّة، وتبنَّى فكرة أنَّ المعنى المقاميّ هو المعنى المنشود، وأنَّ فهم دَلالة النَّصِّ لا يمكن أنْ يتحقق بعيدًا عن المعرفة بالظروف المحيطة بإنتاجه. وقد جاء كتابه في ثمانية فصول؛ دَرَسَ فيها: الكلامَ واللغةَ؛ الاصواتَ؛ النِّظامَ الصوتيّ؛ النِّظامَ الصرفيّ؛ النِّظامَ النحويّ؛ الظواهرَ السِّياقيّة؛ والمعجمَ؛ ثم توَّجَ هذه الفصول بالحديث في الفصل الثامن عن الدَّلالة؛ فَعَدَّ المَقامَ مركزَ الدَّلالة، وأنَّ المستوى الوظيفيّ: (الصوتيّ والصرفيّ والنحويّ) والمستوى المعجميّ يعطيان معنى المقال فقط مِن دون المعنى المقاميّ المتمثل بظروف الأداء وما يتضمَّنها مِن قرائن حاليّة؛ والمنشودُ هو المعنى العميق الذي يتآلف فيه المعنيان المقاليّ والمقاميّ. لكنَّ الدكتور تمّام حسّان قيَّدَ دراسته للمقام بالأداء؛ ولذا دأبَ على اتخاذ مقالات من اللهجة العاميّة لتصديق نظريّة المَقام. أمّا هذه الدِّراسة فهي إذْ تتبنَّى النَّظريّة المقاميّة تذهب إلى ما هو أبعد

مِن ظروف الأداء لتشملَ الظروفَ الحافَّةَ بالنَّصِّ قبل الأداء، وهنا مَكْمَن الصُّعوبة، إذْ إنَّ ذلك يحتاج إلى البحث الشَّاقّ في ظروفٍ ماضية وحاضرة أحاطتْ بالنَّصِّ القرآنيّ الشَّريف.

ومِمَنْ عُنوا بالمقام في منهجهم التَّحليليّ البلاغيّ الدكتور فاضل صالح السامرائيّ في كتبه:"التعبير القرآنيّ، "بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ"، "لمساتٌ بيانيّة في نصوص التنـــزيل"؛ والدكتورة عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" في كتابها "الإعجاز البيانيّ للقران ومسائل ابن الأزرق". لكنَّهما لم يَخُصّا المَقامَ بحديث منفرد لبحث تأثيراته في الدَّلالة بل اكتفيا بالتوسَّع في استعمال منهج القدماء في إثبات إعجاز القرآن الكريم.

منهج الدراسة.

اعتمد الباحث المنهجَ التحليليَّ للكشف عن تأثُّر الدَّلالة بالمَقام، فضلًا عن المنهجِ الوصفيِّ في المقدّمات النَّظريّة التي سَبقتْ التَّحليل. وتمثلتْ حدود البحث بالسياق اللغويّ، الذي يدخل فيه سياق مكانيّ وسياق مقصديّ. فأمّا المكانيّ فيتمثّل بعلاقة السورة القرآنية بما قبلها من السور وبما بعدها، أو بعلاقة الآية ضمن السورة بما قبلها وبما بعدها من الآيات، وهو ما سُمي عند القدماء بـــ"المناسبة"؛ وأمّا المقصديّ فهو حاصل النظر الكليّ لموضوع معيَّن وفق الرؤية القرآنيّة.

وقد افترضتْ الدِّراسة جملة من الفروض منها:-

1 - للمقام تأثير في انتظام السِّياق اللغويّ على نحو تُراعى فيه مقتضيات المقام.

2 - العلاقة بين المقام والمقال علاقة جدليَّة.

3- يتطلَّب فهم المقال فهمًا صحيحًا الإحاطة بمقامه.

4- التأثيرات المقامية هي المسؤولة عن تنامي المعاني.

5- البحث المقامي يمكن أنْ يساعد في حصر الدَّلالة عند تزاحم الدَّلالات.

6- المقام يمكن أنْ يشمل كلَّ أنواع المناسبة بين المقال ومقاصده.

وللتصدي لمشكلة البحث المتمثِّلة بتحديد ماهية المقام ومفهومه، ثمَّ البناء على ذلك للكشف عن تأثيره في دلالة النصّ؛ اعتمد الباحث نظام الأبواب والفصول والمباحث؛ فشملتْ خطّة البحث مقدِّمة أوضحتْ أهداف البحث ومنهجه وأشارتْ إلى الدِّراسات السَّابقة؛ ثمَّ تلتها ثلاثة أبواب ضمَّتْ سبعةَ فصول؛ فعُقد الباب الأول تحت عنوان: **"الدَّلالة والمقام: الماهيّة والمفاهيم"** لدراسة الدَّلالة والمَقام دراسةً نظريّةً؛ جاءت على النحو الآتي:-

- الفصل الأول: الدَّلالة؛ وفيه أربعة مباحث هي: الدَّلالة في اللغة والاصطلاح؛ ماهيّة ومفهوم الدَّلالة في آراء الفلاسفة والأصوليين؛ ماهيّة ومفهوم الدَّلالة في آراء البلاغيين؛ ماهيّة ومفهوم الدَّلالة في آراء المُحدَثين.

- الفصل الثَّاني: المَقام؛ وفيه خمسة مباحث هي: المَقام في اللغة والاصطلاح؛ "لفظ المَقام" في القرآن الكريم؛ مفهوم المَقام في آراء اللغويين؛ مفهوم المَقام في آراء البلاغيين؛ مفهوم المَقام في آراء النُّقاد المحدثين.

أمّا الباب الثاني فعُقد لبحث العلاقة بين المَقام والسِّياق اللغويّ تحت عنوان: **"مقامات السِّياق اللغويّ"** وضمَّ ثلاثة فصول على النحو الآتي:-

- الفصل الأول:تأثيرُ المَقام في توسُّع الدَّلالة؛ واشتمل على أربعة مباحث هي: الذِّكر والحذف؛ الإظهار والإضمار؛ التَّقديم والتَّأخير؛ والتَّعريف والتَّنكير.

- الفصل الثاني:استدعاءُ المَقام الفروقَ الصَّوتيَّةَ والصَّرفيَّةَ؛ واشتمل على مبحثين هما: الفروق الصَّوتيَّة؛ والفروق الصَّرفيَّة.

- الفصل الثالث: تأثيرُ المَقام في العلاقات الدَّلاليّة والظَّواهر والأسلوبيّة؛ واشتمل على مبحثين هما: العلاقات الدَّلاليّة؛ والظواهر الأسلوبيّة. وبُحثَ في هذا الفصل: التَّرادف؛ المشترك اللفظيّ؛ الفصل والوصل؛ والمساواة والإيجاز والإطناب.

أمّا الباب الثالث فتصدَّى لبحث العلاقة بين المَقام والخطاب تحت عنوان **"مَقامات الخطاب"**، في فصلين دُرِست فيهما المقامات المنقضية والمعاصرة والمفتوحة، على النحو الآتي:-

-الفصل الأوَّل: المَقامات المُستعارة؛ وفيه ثلاثة مباحث هي: الخطاب الرِّساليّ؛ الخطاب الجدليّ (الحَجَاجيّ)؛ والخطاب الإلهيّ.

- الفصل الثاني: المَقامات المعاصِرة والمفتوحة، وفيه مبحثان هما: المَقامات المعاصرة؛ والمَقامات والمفتوحة.

وأعقبتْ هذه الأبواب خاتمةٌ حوتْ أهم نتائج الدِّراسة وتوصيات الباحث؛ ثمَّ ذُيِّلتْ الدِّراسةُ بثَبْتٍ بالمصادر والمراجع.

أسأل الله تعالى أنْ يوفقني إلى مرضاته وأنْ يتقبَّل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ويجعله مِن زادي لآخرتي وأنْ يُقِيلَ به عثرتي ويهوِّنَ عليّ سَكرتي؛ وأنْ ينفعَ به طُلّاب العِلم وروّاد المكتبات؛ والله وليُّ التوفيق.

الباحث

الخرطوم2011م